بعد أن فقدت اللغة اليونانية سيادتها أصبحت اللغة العربية :

لغة رسمية للعلم والثقافة

للأستاذ عبد القادر الريحاوي

مدير تفتيش الآثار والمتاحف
في الجمهورية العربية السورية

1 ـ من الطبيعي جدا ان يكون هناك تلازم وارتباط بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية اذ **لولا الاسلام لما اتيح للغتنا العربية ان تنتشر** فيما وراء العالم العربي بل حتى في بعض اقطاره .

2 ـ اذا كان انتشار اللغة العربية مرتبطا بانتشار الاسلام فان العكس غير صحيح وبمعنى آخر لا يمكننا القول بانه لو لم تكن اللغة العربية لغة القرءان لما انتشر الاسلام .

فالاسلام كعقيدة ودستور ومبادىء واخلاق جدير بالانتشار في المجتمعات البشرية على اختلاف الوانها ولغتها ، وليس لزاما لهذه المثل والعقائد لكي يتقبلها الناس ان تكون منزلة بلغة معينة او باللغة العربية ذاتها،لا سيما ان الاسلام لم يأت للعرب وحدهم وانما للعالمين جميعا . ولكن بما ان القرءان نزل بلغة العرب وان الله اصطفى رسوله عليه السلام من العرب فقد أصبح للغة العربية شأن آخر يميزها عن اللغات الاخرى واصبح لزاما على العرب ان يعنوا بلغتهم لكي يفهموا معاني القرءان ومبادىء الاسلام ولزاما كذلك على المسلمين من غير العرب ان يتعلموا اللغة العربية لكي يفهموا الاسلام المتمثل بالقرءان وهو بلسان عربي، وبسنة الرسول من اقوال وافعال ، والرسول عربي . وفعلا فقد **أقبل على تعلم العربية في صدر الاسلام** وما بعده كل من ضح اسلامه وحسن ايمانه من ابناء الشعوب غير العربية .

3 ـ نلاحظ بانه لم يكن بين بلدان العالم العربي المعروفة اليوم من كان عربيا صرفا قبل انتشار الاسلام سوى الجزيرة العربية ، وكانت بلاد الشام تقطنها بعض القبائل العربية الموزعة في نواح مختلفة فيها ، وهي قبائل نازحة من الجزيرة العربية منذ امد غير بعيد ، بينما كان سكان المدن القدماء من بقايا الشعوب التي عرفت بالسامية والتي هاجرت هي ايضا من الجزيرة العربية ، كما يرجح اكثر العلماء ان دفعات حدثت في الالف الرابع والثالث والثاني قبل الميلاد ، وكانت لغاتها تعتبر من اللغات السامية او على الاصح من اللغات العربية البائدة ، كالآرامية والنبطية والفينيقية والاكادية. ولقد **أدى الاسلام الى زوال هذه اللغات القديمة ، او اللهجات العربية القديمة** ، كما نفضل القول ، الى **احلال لغة القرءان لغة رسمية للعلم والثقافة محل اللغة اليونانية** التي كانت هي اللغة الرسمية ولغة الثقافة في الشام قبل الفتح . ان ما قلناه عن الشام يمكن ان يقال عن العراق ، الذي كان محاطا بمراكز وامارات عربية مما جعل المؤرخين العرب يميزون بين عراقيين : عراق العرق وعراق العجم .

اما استعراب باقي البلدان العربية كعراق العجم وبلدان شمالي افريقيا (مصر ـ السودان ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب) ففي رايي ان ذلك حدث تدريجيا **وكانت مقومات هذا الاستعراب** ثلاثة امور :

الاول : انتشار الاسلام وهو كدين عربي في كل مظاهره ومصادره .

الثاني : كون اللغة العربية لغة الحكام اذن فهي اللغة الرسمية السائدة .

الثالث : استيطان كثير من القبائل العربية وتمازجها مع سكان البلاد الاصليين .

وهناك عامل رابع قد يكون اقل شانا الا ان اثره لا ينكر فى هذا الاستعراب الا وهو وجود جاليات وعناصر من اصل عربي قديم فى كل من مصر وشمالي افريقيا ترجع الى هجرات الفنيقيين واقامتهم جاليات على طول ساحل شمال افريقيا فى الالف الاولى قبل الميلاد. ولا ننسى هنا دولة قرطاجة الشهيرةالتي اقامها الفينيقيون السوريون فى وسط افريقيا الشمالية .

اما انتشار اللغة العربية فى بلدان العالم الاسلامي الاخرى فكان ضعيفا محدودا . فقد ظلت هذه الشعوب تحتفظ بلغاتها القديمة رغم دخولها فى الاسلام ، وان تعلم اللغة العربية لم يتح لغير نفر قليل منهم ينحصر فى طلاب العلم وفى العلماء والموظفين ذوي الصلة بالحكام الفاتحيـــن .

4 – **لا اعتقد بان الوعـي الاسلامـي والوازع الديني لهما صلة بضعف اللغة العربية وقوتها** . ان العكس هو الصحيح واكبر مثال على ذلكشعوب شمالافريقيا. فقد كان **تمسكها بدينها هو الذي حال دون القضاء على اللغـة العربيـة** فيها رغم الجهود الجبارة التي بذلهـا المستعمر من اجل القضاء على عروبـة هذا الجـزء من العالم العربي ، كما هو معروف . وفى الهند وباكستان وغيرها نجد بيئات اسلامية تتمسك بدينها وتتمتـع بوعي اسلامي ووازع ديني دون ان يكون للغة العربية تاثير على هذا الحماس الديني ، بينما نجـد بيئـات عربية صرفا فى سورية ولبنان ، اللغة العربية فيها على احسن ما تكون عناية وقوة ، ولكن الكثيرين من ابنائهما مع ذلك ابعد ما يكونون عن الوعي الاسلامـي والوازع الديني ومع ذلك فاننا لا ننكر بان قوة **اللغـة العربيـة وسلامتها فى اية بيئة اسلامية تساعد كثيرا على فهـم الاسلام** والتمكن منه والتمسك به عن وعي وعمـق . لان الاسلام كما ذكرت دين عربي بمظاهره ومصادره .

5 – اشرت الى الكيفية التي انتشرت بها اللغة العربية فىالبلدان الاسلامية غير العربية والى مدىهذا الانتشـار ، ويمكن القول بأن تاثير الفكر الاسلامي كان يظهر فى اللغات المحلية والاقليمية على الشكل التالى :

أ – **اقبال فئة ممن حسن اسلامهم على تعلم اللغة العربية** لغة الدين والعقيدة كي تساعدهـم على فهم القرءان والحديث وما يتصل بهما من كتب السيرة والتفاسير . وبذلك نشات طبقة المتعلمين والعلمـاء التي اتقن افرادها اللغة العربية اتقان اهلها لها .

ب – فى العهود التاريخية التي كان الحكم فيها عربيا صرفا كانت هذه البلدان تتاثر بالحكم العربـي وكانت اللغة العربية لغة الحكام والموظفيـن او بعبارة اخرى لغة **السلطة الحاكمة التي يحرص على اجادتهـا الكثيـرون** من المنتفعين فضلا عن كونها **لغـة الديـن** الامر الذي ساعد على انتشار اللغة العربية وطغيانهـا على اللغات المحلية واضعافها لها **وادخـال كثيـر من الالفاظ العربية** فى بنيتها مما لا يزال باقيا حتى اليوم فى هـذه اللغـــات .

ولكن ضعف الحكم العربي فى هذه البلدان ، الذي بدا يظهر فى العهد العباسي الثاني وقيام دول اسلامية مستقلة عن الخلافة العباسية تحكمها اسر حاكمـة محلية غير عربية ادى الى **انحسار نفوذ اللغة العربيـة تدريجيـــا** .

6 – ان تاثير اللهجات المحلية او اللغة العامية فى سورية او فى بلاد الشام ضئيل . ويخف هذا التاثير كلما زادت العناية باللغة الفصحى وبسلامـة التعبيـر بها لدى الافراد والاوساط المثقفة .

7 – لا جدال ان المكانة التي يجب ان تحتلهـا اللغة العربية بالنسبة للغات الاجنبية هي المكانة الاولى فهي لغة الكتابة ولغة التخاطب ولغة العلم فى كل فروعه ومستوياته ، وتاتي اللغات الاجنبية بالدرجة الثانية بل يجب ان تاتي مكانتها واستعمالها بعد اللغة العربية في كل مكان ، فى البيت وفى العمل الحكومي وغير الحكومي وفى نواحي التعليم المختلفة،وحتى فى المدارس الاجنبية. وهذا مطبق فعلا عندنا فى سورية ، ويجب ان يطبق فى كل بلد عربي . اما **اللغات الاجنبية كلغة ثانية فضرورتها من اجل الاطلاع على مصادر المعرفة الاجنبية والبقـاء على صلة بما يجد فى العالم الخارجي** ، فى نواحي العلم والتقنية ولاستخدامها اداة لا غنى عنهـا فى التعامـل والتفاهم مع العالم الخارجي غير العربي .